الفصل السادس

حلّ شهر كانون الأول جالباً معه غيوماً كثيفة سوداء كالنفط، تجمَّعت فوق القرية أياماً عدّة قبل أن تطرح ما في جعبتها من أمطار. وقد بذل المُزارِعون في مختلف أنحاء المنطقة أقصى جهودهم لزراعة البذور استعداداً للموسم المقبل، لكنّ كثيرين منهم كانوا مشغولين بإيجاد لقمة العيش، فتركوا أراضيهم من دون بذار. أمّا عائلتي فكانت محظوظة بتمكّنها من زراعة قليل من الذرة، فضلاً على نصف هكتار من التبغ سيكون منقذاً لها في الأشهر القادمة.

في أثناء إزالة الأعشاب من الحقول كلّ يوم، كنت أرى **الواغانيو** يتحرّكون ببطء أسفل الطريق بحثاً عن عمل بالمياومة؛ كانت ثيابهم غارقة بالمطر، ويغطيها الطين. فقد أصبح العمل لقاء الطعام أصعب الآن مع زيادة أسعار الذرة في السوق بصورة يومية؛ إذ يتعيّن عليك العمل ست ساعات؛ للحصول على كمية الدقيق نفسها التي كنت تحصل عليها في الماضي لقاء العمل ساعات ثلاث.

واصل الواغانيو وغيرهم التجمّع عند بيت الزعيم ويمبي؛ فالجميع يعرف أنّه يملك فائضاً من المخزون بفضل حقول الذرة الشاسعة التي يمتلكها، والتي تُزرَع بكميات كبيرة من السماد. وقد أصبحت وظيفة غيلبرت الآن تحية الناس الجائعين، ومساعدة والدته على توزيع البهالا عبر الباب الخلفي؛ إذ لم يكن يكد يعطي شخصاً حتى يظهر آخر. وكان يقول:

أودي أودي. هل من أحد هنا؟، ثمّ يقول: ها قد جاء شخص آخر، ويبدو أنّه بحال أسوأ من الذي سبقه.

عند مغادرة هؤلاء الجياع بيت غيلبرت كلّ يوم، كنت أتخيّل والدي يمشي إلى جانبهم؛ وهو مُطأطِئ الرأس، وينظّف التربة. خفت ألّا يطول الأمر حتى يستحيل واقعاً؛ فقد كان الطعام في بيتنا على وشك النفاد.

وكانت والدتي قد درست آخر دلاء الحبوب لدينا في اليوم السابق، فعرفت أنّ ما تبقّى لدينا يكفي لاثنتي عشرة وجبة. وحين خرجت من البيت مُيمِّماً وجهي شطر المخزن، فتحت بابه، وأنعمت النظر داخله. كانت الأكياس الفارغة ملقاة في الزاوية ككومة من الثياب المتسخة التي تنتظر غسلها. وقد حاولت تخيّل منظر المخزن عندما كان ممتلئاً، فوقتئذٍ، كانت حياتنا عادية، ولم يكن الخوف قد عَرف بعدُ طريقه إلى نفوسنا. لكنّني لم أتمكّن من استجماع قواي لأتذكّر.

في تلك الليلة، جمعنا والدي في غرفة المعيشة، قائلاً: **نظراً إلى الظروف التي نمرّ بها، قرّرت تخفيض عدد الوجبات ليصبح وجبة واحدة في اليوم. إنّه سبيلنا الوحيد للبقاء.**

تفهَّمت الأمر أنا وشقيقاتي، لكنّنا أخذنا نناقش التفاصيل الصغيرة.

فسألت آني: **إذا كنّا سنتناول وجبة في اليوم، فمتى سيكون ذلك؟**

قالت عائشة: **ساعة الإفطار.**

صرخت دوريس: **أنا أحب الغداء!.**

قال والدي: **لا، بل سيكون العشاء. فمن السهل عليكم تحمّل الجوع في أثناء النهار. ولكن، بجب ألاّ ينام أحد ومعدته خاوية. سنأكل في الليل.**

وتأسيساً على ذلك، أصبحنا نتناول وجبة واحدة في اليوم، بدءاً من الليلة اللاحقة، حيث جمعنا والدي مُجدَّداً في غرفة المعيشة، وتناولنا الطعام معاً لأول مرّة.

ففي ثقافة التشيوا المخصوصة بنا – أو على الأقل في قريتنا –، لا يُسمَح للفتيات بتناول الطعام مع والدهنّ أبداً، كما لا يتناول الصبي الطعام برفقة والدته؛ إذ عُدَّ ذلك ضرباً من عدم اللباقة، وتجاوزاً لحدود الأدب؛ كحال مَنْ يُطلِق ريحاً في حضور والدته. وقد اعتدت تناول الطعام مع والدي وأعمامي منذ الصغر، في حين كانت والدتي تتناول الطعام برفقة شقيقاتي في غرفة منفصلة.

تتبع العائلة في ثقافتنا كثيراً من القواعد التي ورثناها عن أسلافنا. ولا تشبه العلاقات العائلية التي تحكمنا تلك المتبعة في أمريكا، حيث تعانق البنات آباءهن، ويعانق الأبناء أمهاتهم. ولو شاهد الناس في القرية شيئاً مثل هذا لقالوا مستغربين: **أين أخلاق هؤلاء؟**. كما يتعيّن على الأطفال احترام الكبار من الجنس الآخر في الأحوال جميعها. فعلى سبيل المثال، إذا ناديت شقيقتي التي تصغرني سنّاً ومددت ورقة من فئة مئة كواتشا، قائلاً: **اذهبي إلى المتجر بسرعة وأحضري بعض الخبز**، فستنحني على ركبتها قبل أن تأخذ المال. على هذا المنوال تجري الأمور هنا.

في تلك الليلة إذن، افترشت أنا ووالدي الأرضَ في غرفة المعيشة برفقة شقيقاتي. وكانت هناك علبة نيدو مليئة بالكاز تومِض على طرف الطاولة الخشبية، مُطلِقةً سُخاماً أسود صعوداً عبر الرطوبة. ثمّ دخلت والدتي وهي تحمل حوضاً وإبريقاً من الماء الدافئ لغسل الأيدي؛ وهو أمر واجب قبل الأكل وبعده. طافت شقيقتي دوريس على كلّ فرد، وهي تحمل الحوض بيد، وتصب الماء بالأخرى. وبعد أن يفرغ الجميع من ذلك، تجلب والدتي صحناً كبيراً، ثمّ ترفع عنه الغطاء، قائلة: **اقتصدوا في الأكل**، ثمّ تجلس لتشاركنا الطعام على الأرض.

وبدلاً من جبل كعك السيما الذي تعوّدت تناوله، فقد احتوى الصحن على كتلة رمادية واحدة لا يحسبها الرائي طعاماً أصلاً. كان هناك أيضاً صحن آخر قريب من الأول يحوي بعض الخضر بالخردل. وسرعان ما شقَّت الرائحة طريقها نحو أنوفنا، ومرَّرنا الكتلة فيما بيننا، وتقاسمناها كما يتقاسم الدجاج طعامه. لم نكن مضطرين إلى استخدام أيٍّ من أدوات المائدة حتى الأطباق؛ فوَفقاً لحساباتي، حصل كلّ منّا على سبع لقم.

وبعد أن أنهينا السيما في دقائق معدودات، كان الصمت في أثنائها يُخيِّم على المكان، شعرنا بسعادة غامرة لوجود شيء نمضغه. لكنّ ملامح السعادة هذه كانت غائبة عن مُحَيّا والديّ. وفي واقع الأمر، لم يسبق لي أن رأيتهما بمثل ذلك القلق من قبل. فكما تعلمون؛ في الأسبوع الذي سبق نفاد الطعام لدينا؛ أي في الثاني والعشرين من تشرين الثاني، أنجبت والدتي طفلة أخرى.

كانت ثقافتنا تحتم على الصغير احترام الكبير، وكانت تحظر علينا طرح الأسئلة، ولاسيّما تلك التي تتعلق بالجسم. وكنت قد لاحظت – على مدار أشهر – أنّ وزن والدتي آخِذٌ في الازدياد، لكنّني لم أجرؤ على قول شيء. فعندما تحبل امرأة في القرية، يصبح الأمر من المحرّمات، إنّه كَسِرٌّ مُعلَن لا ينبغي مناقشته. أمّا زوج المرأة أو والدتها فيحقّ لهما السؤال عن بطنها المتنامي. وإذا حدث أن سُمِع أحد الأطفال يذكر ذلك جهراً، فإنّه يتعرّض للضرب؛ صبيّاً كان أو فتاة. لم يكن الحديث عن المرأة الحامل أمراً ممنوعاً فحسب، بل كان يعرِّضها للسحر كما يعتقد الناس هنا. لذا، كانت النساء الحوامل يلتزمن بيوتهنّ إلى ما بعد الولادة. وحين يَسأل الصغار عن المكان الذي أتى منه شقيقهم أو شقيقتهم الجديدة، يجيب الوالدان: **من العيادة، حيث يُشترى الأطفال كافة.**

عندما عاد والديّ إلى البيت حامليْنِ الطفلة الجديدة، قفزت شقيقتي الصغرى من شدّة الحماس؛ لأنّها عرفت أنّهما تسوّقا في العيادة أيضاً. لكنّ والديّ كانا قلقيْنِ لدرجة أنّهما لم يحفلا بأيّ من الأسئلة التي وُجِّهت إليهما. ولم تحصل المولودة الجديدة على اسم طوال أيام أُخر أيضاً.

يُذكَر أنّ القرى التي تعاني تدنّياً في خدمات الرعاية الصحية، يموت أطفالها مبكّراً بسبب سوء التغذية، والملاريا، والإسهال. ويكون الوضع أكثر سوءاً وقت الجوع. وبسبب ذلك، فإنّ الأسماء تعكس عادة الأوضاع المحيطة، أو تمثِّل أكبر المخاوف التي يتوجّس منها الأبوان. إنّ هذا الأمر محزن حقّاً. ومع أنّك قد تصادِف – في شتّى أنحاء مالاوي – رجالاً ونساءً بأسماء بائسة، من مثل: سيمكهاليستا (سأموت على أيّ حال)، ومالازاني (أَجْهِز عليَّ)، وماليرو (جنازة)، وماندا (شاهد القبر)، وبهيلانتوني (اقتلني بسرعة) –فإنهم جميعاً تمكّنوا من التغلّب على دلالة هذه الأسماء. أيضاً، عمد كثير منهم إلى تغيير أسمائهم عند

الكبر، مثلما فعل الشقيق الأكبر لوالدي؛ إذ سمّاه جدّي وجدّتي مدزيمانغي؛ ويعني «انتحار»، حيث غيَّره لاحقاً إلى موسايوالي؛ أي «لا تنسَ».

على الرغم من التوتر الذي كان محيطاً بوالديّ، فقد وُلِدت شقيقتي بصحة جيدة؛ إذ بلغ وزنها ستة أرطال وأونصتين. لا أعرف إذا كان الأمر متعلقاً بصحتها الجيدة، أو بإيمانهما الأعمى الذي واجها به المجاعة الوشيكة، وقد أسماها والدي تياميكي؛ أي (**حمداً لله**).

مع بقاء نصف دلو من الدقيق فقط، علمت أنّ الوقت لن يطول قبل الانضمام إلى صفوف **الواغانيو**، لنجوب الأرض معهم. كنّا في حاجة إلى معجزة، أو فكرة جيدة في الأقل. وفي صباح اليوم اللاحق، أعلن والدي عن فكرة مذهلة تُعَدّ مقامرة في حدّ ذاتها، ورمية عظام تفوق خطر أيّ سحر؛ إذ قال: (**سنبيع ما نملك من طعام**). بعد ذلك بقليل،أخذت والدتي آخر كمية نملكها من الدقيق، وأضافت إليها الصويا وقليلاً من السكر، ثمّ بدأت تخبز كعك **الزيغومو** لبيعه في السوق. كانت الخطة تتمثَّل في إطلاق مشروع صغير، واستغلال ما تبقّى من مخزون الطعام، واستثمار الأرباح فيما يعود بالنفع على العائلة كلّها.

ملأت رائحةُ الكعك اللذيذ البيتَ طوال النهار، وتسللت إلى الغرف كلّها، وانتشرت باتجاه الحقول لدرجة أنّ بعضهم كان يتوقّف في أثناء المرور بالمنزل؛ أملاً في الحصول على بعض الكعك. ولكن، لم ينابهم سوى الرائحة الزكية. حتى الطيور أصابتها الشجاعة، وتجمّعت في الباحة لغناء لحن حزين. لقد بدا لي أنّ الرائحة دخلت جسدي مثل شبح تسلّل إلى معدتي الخاوية، ثمّ مدّ رجليه واتكأ على مرفقيه. كنت كمَنْ يتعرّض للتعذيب. وكانت والدتي عادة تتركني آخذ وعاءً لأكشط بقايا العجينة بأصابعي. كانت البقايا ذات قيمة عالية لدرجة أنّنا – معشر الأطفال – منحناها اسماً مخصوصاً بها؛ هو (**في بي**)، **نسبة إلى** (فاباسي بوت)، الذي يعنى قاع الوعاء. وقد اعتدنا أيضاً أن نظهر في الباحة عندما توشك والدتي على تنظيف الوعاء أو رمي البقايا للدجاج، ثمّ نقول: **ماما، في بي؟**. لكنّ الأمور الآن اختلفت عمّا ذي قبل؛ إذ كشطت والدتي البقايا حتى آخرها، للإفادة منها في صنع الكعك؛ كأنّها نظّفت الوعاء بقطعة من الإسفنج. لم يكن هناك في بي، إنّما وعاء فارغ فقط.

في تلك الليلة، بنى والدي كشكاً من طاولة مكسورة ولوح معدني، واختار لوالدتي موقعاً أمـام صالـون إيبونغا للحلاقـة. وفي صباح اليوم الآتـي، افتتحت والدتـي المشروع، وباعت الكعـك مقابل ثلاث كواتشات للقطعة. لقد كان الكعك دسماً ومشبعاً، وأقلّ سعراً من الكعك المُحلّـى والووكمـان التي كانت تبـاع أيضاً. وفي حـال كان أحدهم يملك قليـلاً من الفكّة لا تكفي لشراء كيس من الدقيق، فإنّ الكعك هو خياره الوحيد. وقد تمكّنت والدتي – في بعض الأيام – من بيع الكعك جميعه في أقلّ من عشرين دقيقة.

يُذكَـر أنّه منذ نفاد الذرة من البلاد، أصبح رجال الأعمال في المركز التجاري يعبرون الحـدود باتجاه تنزانيا ويشترونها (الـذرة) بالطن، ثمّ يبيعونها في البـلاد. كان أحد هؤلاء التجـار صديق قديم لوالدي، يُدعى السيد مانغوتشي. وقـد استخدم والدي المال الذي كان يجنيه من بيع الكعك لعقد صفقة مع مانغوتشي، تتمثّل في شراء دلو من الذرة. أخذت والدتي الـذرة إلى الطاحونة، ثـمّ احتفظت بنصف الدقيق لنا، واستخدمـت الباقي لخبز مزيد من الكعك. كنّا نفعل ذلك يوميّاً؛ نأخذ كفايتنا ونبيع الباقي. لقد كان ذلك كافياً لتوفير كتلة من السيمـا كلّ ليلة، إضافة إلى بعض أوراق اليقطين. كان ذلك لا يمثّل شيئاً يُذكَر تقريباً، لكنّ وجوده كان كافياً لجعل الجوع أقلّ وطأة.

قال والدي: **سنصمد إذا تمكّنّا من الاستمرار في مشروعنا؛ فربحنا الحقيقي هو أنّنا ما زلنا أحياء.**

وفـي صبيحة يوم أحد ليس ببعيد عن ذاك، كانت والدتي في البيت تحضّر كعكها للبيع حينما لاحظت أمراً غريباً؛ إذ كان هناك شابان في باحتنا يمتطيان درّاجتين هوائيتين، وقد أخـذا يتحدثان إلـى شقيقتي الكبرى آني. لم يسبق لوالدتـي أن رأتهما من قبلُ. وبلأن كانتا ممنوعتين شقيقاتي من التحدث إلى الفتيان من دون إذن، فقد ذهبت لتقصّي الأمر.

قالـت آني: **ماما، هـذان مدرّسان مـن المدرسة الخاصـة في متونثامـا. لقد حضرا لزيارة صديقهما الذي يسكن نهاية الطريق.**

طلبـت آنـي أن ترافقهما؛ إذ كانت ترتـاد المدرسة المتوسطة الواقعـة قبالة المدرسة الخاصة. لذا، ظنّت والدتي أنّهم يعرفون بعضهم بعضاً. فوافقت من دون أن تلقي للأمر بالاً،

وذهبت إلـى المركز التجاري. كان والدي وقتئذٍ في زيارة لصديق بضيعة مجاورة. ولما كان اليـوم هو الأحد، فقـد كان بقيّتنا قد توجّه إلى السوق، في حين بقيـت شقيقتي دوريس التي كانت في التاسعة من العمر وحيدةً لرعاية البيت.

عندمـا عادت والدتي إلى البيت ساعة الظهيـرة، اكتشفت أن لا شيء قد أُعِدّ لتحضير العشاء.

فسألت دوريس: **لماذا لم تشعلي النار؟ أين شقيقتك؟**

أجابت: **لقد ذهبت مع الرجلين.**

قالت: **ألم تعد حتى الآن؟**

هزّت دوريس كتفيها بالنفي.

وحيـن عاد والدي إلى البيت في تلك الليلة سأل عن آني، فحاولت والدتي إخفاء الأمر، ولم تشأ إخباره بأمر الشابين؛ أملاً في عودتها قبل أن يتأخر الوقت أكثر. ولكن، بعد العشاء، سأل والدي عنها مجدَّداً، وقد بدت على مُحَيّاه ملامح الجدّ والصرامة هذه المرّة.

- **أين ابنتي؟**
- **لا أعرف.**
- **إنكِ تعرفين. أنتِ والدتها. أخبريني الآن.**
- **أرجوك، أنا لا أعرف.**

قلقت والدتي لدرجة أنّها تناولت مشعلها وخرجت تبحث عنها في الطرقات. وقد سألت الجيـران والقادمين من السوق، لكنّهم أفادوا جميعهم بعـدم مشاهدتهم لها. وبعد ساعات عدّة، عادت إلى البيت باكية، وواجهت دوريس مرّة أخرى، قائلة: **ماذا رأيتِ؟ أين ذهبوا؟!**

خافـت دوريس، فأخبرت والدتي بالحقيقة. كانت آني قد حزمت حقيبتها قبل المغادرة مع الشابين. وقد طلبت إلى دوريس عدم إخبار أحد بهذا الأمر.

أسرعت والدتي إلى غرفة آني، واكتشفت أنّ ثياب الأخيرة قد اختفت، إضافة إلى حقيبتها المدرسية. وكان كلّ ما تبقّى هو زيّها المدرسي وكتبها. وحين استدارت والدتي وجدت شيئاً بارزاً من حقيبة حفاظات تياميكي التي كانت تبقيها في غرفة آني. لقد كانت رسالة كُتبت بلغة تشيتشيوا، مفادها: **لقد تزوّجت المدرّس. أنا في أمان، لا تقلقوا.**

دخل والدي الغرفة، فأخذت والدتي تقرأ الرسالة بصوت عالٍ، ثمّ استشاط غضباً لدى سماعه النبأ.

- **مَنْ هذا الرجل؟**
- **لا أعرف.**
- **أخبريني مَنْ هو الآن. سأذهب لإيجاده!.**
- **لا أعرف مَنْ يكون.**

سمعت والدي يذرع الباحة جيئةً وذهاباً، بينما كانت فتحتا أنفه متسعتين كثور غاضب. لم أجرؤ على مغادرة غرفتي؛ خوفاً من أن يضربني أنا ليشفي غليله.

أنتِ تكذبين! إنّك تخفينها عنّي! أين ابنتي؟! اذهبي وأعيدي ابنتي. أنتِ تعرفين مكانها!.

قلت لك إنّني لا أعرف.

كانت آني قد نجحت في الامتحان النهائي، وأخذت تستعدّ للانخراط في المدرسة الثانوية. وكان الوالدان فخوريْنِ بها جدّاً، وكثيراً ما أظهرا ذلك أمام الأقارب والتجار في السوق. وقد اعتاد والدي الجلوس مع شقيقاتي، ويقول لهنّ صنوفاً من الكلام، مثل: **لقد رأيت فتاة تعمل في مصرف البلدة؛ فتاة مثلكنّ تماماً.** يُذكَر أنّ والديّ لم يُكمِلا مرحلة التعليم الابتدائي، وكانا يجهلان التحدث بالإنجليزية، ولا يعرفان من القراءة سوى النزر اليسير. لكنّهما كانا يعرفان لغة الأرقام جيداً؛ نظراً إلى خبرتهما في مجال البيع والشراء، وودّا لو يتعلّم أطفالهما أكثر. لذا، جمّع والدي المال الذي يجنيه، ليتمكّن من إرسال آني

إلى المدرسة، على الرغم من شحّ الإمكانات والمشكلات الأخرى. والآن، اختفت آني – بكل بساطة– من دون وداع أحد من أفراد العائلة.

صرخ والدي قائلاً: **لقد خسرت ابنتي، ومالي كلّه! إنّ ابنتي فتاة غبية. انتظروا لتروا ما سأفعل عندما أجدها.**

لكنّـه كان يعرف أنّ الأوان قد فـات، وأنّ آني تقضي تلك الليلة مع حبيبها على الأرجح. وحتـى إن فشل مخططهما ولم يتزوجا، فـإنّ شقيقتي قد لوّثت نفسها، وجلبت العار لعائلتنا. وقد لا تعود للعيش معنا أبداً، الأمر الذي يحطّم قلب والدي.

كان الرجـل الذي تزوجته آني مدرِّساً يُدعى مايك. وقد التقيا في متونثاما قبل عشهور عدة، ووقعا في الحب. كان مايك قد التقى بآني في اليوم السابق من دون أن يراه أحد، قائلاً لهـا: **سآتي لآخـذك. لا أريد أن تعيشي في هذه القرية بعد الآن.** وقد رافقه صديقه لغرض التمويه، وأخذ حقيبتها مسبقاً. فبذا، لن يشكّ أحد عندما يرى شقيقتي برفقة مايك. اختبأ كلاهمـا في منـزل الصديق الواقع في المنطقـة 34، ثمّ توجّها إلى بيـت مايك في نتشيسي صباح اليوم اللاحق.

فـي حالات الحب العاديـة، إذا وقعت فتاة في غـرام شاب، فإنّها تطلـب إليه الحضور لمقابلـة عائلتها، ثمّ يقـوم في الأسابيع التي تلـي بزيارات متتالية للعائلـة. وفي حال سارت الأمور كما ينبغي، وشعر الشاب بالأمان مع العائلة، فإنّه يتقدّم لخطبتها. وعندئذٍ، تقول الفتاة: **حسنـاً، سأتحـدث إلـى عمـي.** بعدها، تتحدث الفتـاة إلى والدتها في الموضـوع، ثمّ تتحدث الوالدة إلى الوالد الذي يتحدث بدوره إلى شقيق زوجته. بعدها يجتمع الخال بخال العريس، ثـمّ يحـدِّد خال العروس قيمة المهر؛ الذي يكون عادة مبلغـاً ماليّاً يبدأ من مئة ألف كواتشا، أو ماشيـة، كتقديم بقرة على سبيل المثـال. و يُمنَح خال العروس شيئاً لقاء تحدثه نيابة عن عائلته. كان هذا كلّه يحدث قبل بدء التخطيط للزفاف.

يتعيّن على عائلة العريس، إضافة إلى المهر، دفع نفقات الحفل والاستقبال، و في ذلك: الطعام، والشراب، وأجور النقل. وعادة ما يكون المبلغ كبيراً إن كان العريس من علية القوم.

وبوجه عام، يُعَدّ الزواج أمراً مكلفاً بالنسبة إلى الرجل، الأمر الذي يفسِّر وجود كثير من الشباب الأعزاب في مالاوي.

لم يقم خطيب شقيقتي آني بأيّ من ذلك. وبعد اختفائها بثلاثة أسابيع، تلقّى والدي رسالة من والديّ مايك يبلغونه فيها بأمر الزواج، وكيف أنّ الزوجين يخططان للإقامة في نتشيسي. و ضمّت الرسالة تفاصيل عن كيفية تحصيل المهر الذي بلغ بضع مئات من الكواتشا التي لم يصلنا منها سوى النصف. سوف يمرّ عام كامل قبل أن نسمع عن شقيقتي مرّة أُخرى.

في الأيام التي تلت مغادرة شقيقتي، بدا أنّ روح والدي قد اختفت؛ إذ لم يعد ذلك الرجل المتفائل، و لوحِظ غياب ابتسامته المعتادة في البيت؛ كأنّ الريح قد هبّت وخطفت أحد بيوتنا. كان من الواضح أنّه يميل إلى الهدوء والتجهّم والوجوم، الأمر الذي زعزع ثقتنا بالقدرة على مواجهة المجاعة الوشيكة. لقد كنّا جميعاً منزعجين بخصوص آني. ولكن، ما لم نعترف به هو أنّ غيابها أفضى إلى زيادة حصصنا من الطعام؛ فمع غيابها، أصبح كلّ منّا يحصل على لقمة إضافية.

بعد مرور أسبوع على ما حدث، كانت والدتي تقفل عائدة إلى البيت بعد بيعها الكعك في المركز التجاري؛ فإذ بشاحنة سعتها ثلاثون طنّاً تمرّ من جانبها. كان حِمْل الشاحنة مغطّى بأغطية بلاستيكية. وقال بعض التجار القريبين: إنّها كانت مليئة بالذرة، ومتجهة إلى فرع إدمارك في تشاماما. وحين وصلت والدتي إلى البيت، أخبرتنا بما حصل، ثمّ نادت عليَّ، قائلة: **ستذهب إلى تشاماما يوم غد. يتعيّن عليك المغادرة باكراً قدر الإمكان.**

تبعد تشاماما خمسة عشر كيلومتراً، فكان من الطبيعي أن أتأفّف.

قلت: **هل أنتِ متأكدة أنّ الشاحنة كانت تحمل الذرة وليس السماد؛ لأنّه إذا.**

قاطعته قائلة: **ألم تفهم ما قلته يا فتى؟ ستذهب غداً.**

وفي حال صحّ ما قالته والدتي، فذلك خبر رائع؛ إذ كان دلو الذرة حينها يباع في السوق التجاري بثمان مئة كواتشا، ومن المؤكّد أنّ السعر سيتضاعف في الأشهر القادمة. وإذا

نجحنا في شرائه بسعر أقلّ ممّا تعرضه إدمارك، فإنّ من شأن الكيس أو الكيسين الإضافيين مساعدتنا بصورة كبيرة.

استيقظت في اليوم اللاحق عند الخامسة صباحاً، ثمّ ركبت درّاجتي، وانطلقت صوب تشاماما. وقد عمدت إلى سلوك الطريق المختصرة عبر الحقول؛ للوصول بسرعة، لكنّ الأمور لم تَسِر كما خَططت لها؛ إذ كانت الطرق مليئة بالناس المتوجّهين إلى المكان نفسه، وكان الجميع يحمل أكياس دقيق فارغة.

قلت بصوت عالٍ: **تشاماما؟**

أجابوا: **نعم.**

كانت إدمارك تقع في قلب المركز التجاري بتشاماما، على طول طريق مرصوف بالحصى وسط واجهات بيضاء من طابق واحد. كان المبنى نفسه أبيض، وإطارات نوافذه زرقاء اللون، وكان يقع خلف سياج سلكي، محاط بعرائش معدنية تُخزَّن فيها الحبوب عادة.

وحين وصلت المكان المنشود، لم أُصدِّق ما رأته عيناي؛ إذ امتدّت الصفوف (الطوابير) من أبواب إدمارك إلى نهاية الشارع، أي ما يساوي في الأقل طول ملعب كرة قدم. كان هنالك صفّان؛ أحدهما للرجال، والآخر للنساء، وكانا يزيدان طولاً كلّ دقيقة. حينئذٍ، ركنت درّاجتي على السياج، وذهبت لأقف في الصف.

كانت الأجواء لا تزال مظلمة بعض الشيء عند الساعة السادسة والربع، وكان الجو بارداً ولطيفاً. وقد بدا الناس بروح معنوية عالية. ولكن، ما إن ارتفعت الشمس الحارقة في كبد السماء، حتى أصبحت أعي فجأة مدى التأثير المدمّر للجوع في الحاضرين كافة. بدا الأشخاص المحيطون بي ضعفاء ومُنهكين، كأنّهم لم يناموا في الليلة السابقة؛ إذ تقلّص جلد خدودهم، في حين قرصت أشعة الشمس عيونهم. وعلى الأرجح أنّهم لم يجدوا ما يسدّون به رمقهم في الأسابيع المنصرمة، وأعتقد أنّ إدمارك كانت خلاصهم الوحيد. ففي حال لم تجرِ الأمور كما خططوا لها هنا، فإنّها – على الأرجح – لن تتحسّن أبداً. وما زاد الأمر تعقيداً ارتفاع درجة الحرارة والرطوبة اللتين كانتا تلفحان وجوه الناس، فتزيدا من ذبولها كأنّها نباتات معلَّبة.

كان أمامي رجل عجوز على وشك أن ينام واقفاً. كانت يداه ترجفان كمَنْ يعاني البرد، ويتنفس بصعوبة. وحين تقدّم الصف خطوة، لم يتحمّل جسد العجوز التقدّم معه، فخرّ على الأرض مُنهاراً. وقد صُدمِت عندما رأيت الحشد يتجاهله ويمرّ من فوقه. وفي المقابل، كان الرضّع في الصف الثاني يصيحون من شدّة الجوع، في حين تشبّث الأطفال بأثواب أمهاتهم متوسّلين إليهنّ للحصول على الإفطار. إنّ أكثر ما أتذكّره من ذلك اليوم، هو صوت بكاء الرضّع.

ومع مرور وقت الصباح، بدأ بعض الناس يبيعون أماكنهم في الصف؛ فقد كانوا لا يملكون المال لشراء الدقيق، لكنّهم قدموا الساعة الثالثة صباحاً وحجزوا مكاناً جيداً في الصف. وما إن يقترب أحد هؤلاء من المبنى حتى يستدير إلى مَنْ خلفه، قائلاً: **هلّا احتفظت بمكاني؟**، ليسير بعدها نحو نهاية الصف، ثمّ يختار شخصاً بلغ منه الجوع مبلغه؛ شخصاً ذا عينين قاتمتين زائغتين في محجريهما، قائلاً له: **أنا على بُعْد عشر دقائق من الباب. يمكنك أخذ مكاني على أن تعطيني بعض الذرة عندما تخرج.** ولقد كان الناس يتسابقون للحصول على مثل تلك العروض؛ وهو أمر استمر طوال اليوم.

كانت والدتي قد غرفت ذلك الصباح من منتوجها وأعطتني كعكة لأتناولها في أثناء الرحلة؛ كعكة ربضت كحجر في معدتي الخاوية. ولكن، بعد الوقوف في الصف ساعات عدّة، أُصبت حقّاً بالجوع والتعب، وكانت الحرارة التي تصدر عن أجسام الأشخاص المحيطين بي تشعرني كأنّني وسط كتلة من النيران. وأخذت تصدر عن هؤلاء الأشخاص رائحة كريهة، فشعرت كأنّ رأسي كيس جامبو تحمله الرياح وتتجه به نحو الشمس. حتى أصابعي كانت متعرّقة.

وكلّما كنّا نقترب من الباب، عيل صبر الناس، وبدأوا بالتدافع؛ إذ لم يعد لديهم قدرة على الصبر أكثر من ذلك. وفجأة، دفعني أحدهم من الخلف بقوة لدرجة أنّني أمسكت بالرجل الذي ؛ لأتجنّب السقوط. وسرعان ما بدأ الأشخاص يركضون من الخلف ليحشروا نفسهم في المقدّمة، مندسين في الصف كفئران تمرّ من تحت باب.

وما هي إلّا لحظات حتى صرخ الواقفون بأحد الأشخاص: **أنتَ، كُفّ عن تجاوز الصف.** فردّ بصوت أرهقه الجوع: **لقد استيقظنا من النوم مع صياح أول ديك! لقد أمضينا اليوم كلّه هنا!.**

لكنّ الناس واصلوا التدافع نحو المقدّمة. فقد عرف الجميع أنّه لم يكن هنالك سوى شاحنة واحدة من الحبوب، وأنّها ستنفد في نهاية المطاف. وكلّما زاد تجاوز الواقفين في مقدّمة الصف، زاد ذعر البقية.

اقتحم كلا الصفين البوابات الأمامية. وكانت موجة من الأجساد تهدر خلفي، وتلصقني بالرجل الذي أمامي. لم أتمكّن من التنفس. ثبّت قدمي لتفادي السقوط. ولكن، عندما ملت جانباً – مسافة لا تزيد على ثلاثة إنشات – لأستنشق بعض الهواء، سقط الرجل الذي كان خلفي مُطلِقاً تفاعلاً متسلسلاً؛ إذ سقط عليه أربعة رجال، متسبِّبين في تصادم ضخم بين الركب والمرافق. وما إن سقط السد حتى اندفع الحشد من خلفهم ليحتلوا المواقع الخالية.

في حين ابتلعتني أمواج الحشود مرّة أخرى، حدث شيء غريب؛ إذ ساد الصمت مختلف الأرجاء، وهدأ صراخ الأطفال وعويلهم، وهدأ خوفي مع ذلك. نظرت عبر الوجوه والأصابع والأسنان المتشابكة فرأيت جائزة كبيرة. كان مبنى إدمارك أمامي مباشرة، على بُعْد بضعة أمتار فقط، وقد كان محاطاً بحفرة مائية ضحلة بفعل المطر تشبه الخنادق المائية التي تحيط القلاع؛ حفرة بدت لسوء حظي كنهر الأردن العظيم. وقفت هناك كأنّني على قمّة جبل، أشاهد أرض الميعاد. كلّ ما كان عليَّ فعله هو عبور الماء.

بعد عشرين دقيقة و موجات إضافية من الحشود، شعرت أنّني على بُعْد قدم من الباب. دخلت بعدها بقليل. كان مكتب إدمارك هادئاً ومسالماً، كما أصبح الهواء بارداً ومنعشاً فجأة. شاهدت أمامي تلّاً من الذرة يصل طوله إلى خصري؛ كانت أكبر كمية طعام أراها منذ أشهر. كان المنظر يبعث على النشوة.

ولكن، ما إن دخلت حتى سمعت جلبة قادمة من عند الباب الأمامي حيث كنت أقف قبل لحظة؛ إذ وقف عاملان أمام الحشود، وأعلن أحدهما ما يأتي: **سيداتي سادتي، نحن آسفون؛ لم يتبقَّ سوى عشرة أكياس.**

لم تنتظر الحشودُ الرجلَ حتى يكمل كلامه، فتحوّل الشغب الذي غادرته للتو إلى شجار كبير، استخدم فيه الرجال قبضاتهم لشقّ طريقهم نحو الأمام. وشاهدت امرأة تسقط على الأرض وتختفي، في حين سُحِل رجل على الأرض وسُحِق. وقفزت نسوة مع أطفالهنّ كنّ يقفن عند الباب الأمامي خارج الصف؛ ليتجنّبن التعرّض للسحق أيضاً. لقد سرت هؤلاء النسوة منذ شروق الشمس، لكنّهنّ خسرن مواقعهنّ لتجنّب النزاع. وقد رأيتهنّ يغادرن من دون الحصول على شيء، متسائلات إن كنّ يقدرن على الصمود والبقاء حتى نهاية الشهر.

أشحت بوجهي عن المشهد العنيف لأجد دوري قد حان. كان لديّ أربع مئة كواتشا في جيبي؛ وهو مبلغ كافٍ لشراء الحدّ الأعلى المسموح به من الذرة، البالغ خمسة وعشرين كيلوجراماً. ولكن، ما إن وصلت عند طاولة البائع، حتى علمت أنّ هذا الحدّ قد أصبح عشرين كيلوجراماً فقط وبالسعر نفسه.

سأل الرجل: **كم تريد؟**

فرددت: **أريد عشرين.**

أعطاني تذكرة، ثمّ طلب إليّ العودةَ إلى أول الصف. وفي هذه الأثناء، شاهدت على الطرف الآخر هناك، مجموعة من العمّال وهم يغرفون الذرة بدلاء معدنية. لقد بدا أولئك الرجال أقوياء وبصحة جيدة، وكانوا لا يُشبهون بأيّ حال الأشخاص المنتظرين في الخارج. وحين هممت بأخذ الذرة، وجدت أنّني تعرّضت للغش والخداع من العامل الذي كالها لي؛ إذ ملأ دلوي بسرعة ورماه على الميزان، ما تسبَّب في تحرّك إبرة الميزان من جهة إلى أُخرى واهتزازها بصورة جنونية. وقبل أن تستقر، رفع الدلو بسرعة، ثمّ أفرغ محتواه في كيسي، قائلاً: **التالي!**

قلت: **ولكن، انتظر! لم تقم...**

فقال مُقاطِعاً: **إن لم يعجبك الأمر، فبإمكانك ترك ذرتك هنا! هنالك كثير ممّن ينتظر بعدك. التالي!**

لـم يسعني فعل شيء، فناولتـه المال وحملت ذرتي، وركضت باتجاه الباب، كأنّني قمت للتوّ بسرقة المكان. وعلى الرغم من تعرّضي للخداع، فإنني شعرت بتربّعي على قمّة العالَم، وفـوزي بالجائزة الكبرى. ولكن، سرعان ما أصبحت مهمتـي مخيفة حال خروجي لمواجهة الحشود؛ إذ اندفع رجل صوبي، صارخاً: **سأعطيك خمس مئةٍ لقاء ذلك!**.

دفعه آخر جانباً، قائلاً: **لا يا فتى، أنا سأعطيك ست مئةٍ!**.

تظاهـرت أنّنـي لا أسمعهما، وأسرعت بربط الكيس علـى درّاجتي لأغادر المكان؛ فقد يأتـي شخص ثالث ويضربني ويسرق طعامي بسهولة. لم أتوقّف عن تدوير الدوّاستين حالما صرت على الطريق. وقد سمعت لاحقاً عن أعمال شغب اندلعت في مباني إدمارك أُخرى في مختلف أرجاء مالاوي، سقط فيها كثير من الأطفال عن ظهور أمهاتهم وتعرّضوا للسحق.

استقبلنـي والدي ووالدتي وشقيقاتي فـي البيت استقبال الأبطال. وقد بدا على مُحَيّاي التعـب والإرهاق، وكانت ثيابـي مترهلة متسخة. ألقيت الكيس على ميـزان والدي لأُؤكّد أمرَ السرقـة التـي تعرّضت لها؛ إذ حصلـت على خمسة عشر كيلوجراماً مـن الذرة فقط؛ أي ما يعادل نصف كيس، لكنّنا – في الأقل– سنتمكّن من تأمين الطعام أسبوعاً آخر.

بدأ الناس يبيعون مقتنياتهم في المدة التي تلت رحلتي إلى تشاماما.

وفـي أثنـاء وقوفي في الرواق صبـاح يوم مطير، رأيت صفّاً مـن الناس يسيرون أمامي ببطء كأنّهم جيش عظيم من النمل. لقد كانوا جيراننا وبعض المُزارِعين من قرى أُخرى. وقد حملـت النسوة أحواضاً على رؤوسهنّ تحتوي على أغراض من مطابخهنّ؛ القدور، والمقالي، وسطول الماء جميعها، فضلاً على حزم من الثياب. رأيت أيضاً رجلاً يتأبّط دجاجة تحت كلّ ذراع. كما رُبِطت أرجل المعز بالحبال، وكانت تصيح وتئن وهي تُجَرّ على الطين. وقام بعض الرجـال بحمل أرائك، ومقاعد، ومناضد على ظهورهم وأكتافهم، فانحنت رؤوسهم وتغيّرت ملامـح وجوههم تحـت وطأة ثقل الحمل. وكانوا يتوقّفون كلّ بضعـة أمتار لأخذ قسط؛لينالو اقسطاً من الراحة بعد أن أرهقهم الجوع، ثمّ يرفعون حملهم الثقيل، ويتابعون المسير.

استلقى كهامبـا عند قدمي، وهزّ ذيله بكسل؛ لإبعاد الذباب الذي احتمى بالرواق. لقد أصبح هزيلاً أكثر من السابق؛ إذ لم تكن وجبتنا اليومية تشمل الكلب، حتى إنّني كنت أضطر

– في بعض الأيام – إلى تناول ما كنت أُطعمه إيّاه عادة. وقد شعرت بالذنب تجاهه لدرجة أنّني كنت أحاول تجاهله بصورة كلّية. لكنّه تمكّن من إيجادي هذا الصباح، وأخذنا نراقب معاً الناس المارّين بالطريق.

كان يبدو عليهم العجلة، والرغبة في الذهاب إلى مكان ما، وإفراغ تلك المقتنيات فيه، وسدّ جوعهم بأيّ شيء. كما لم يحفلوا بالمطر الذي أصبح غزيراً لدرجة أنّ أجسادهم تحوّلت إلى بقايا أرواح مبلولة مشوّشة.

انتظرت حتى خفّ سقوط المطر، ثمّ تبعتهم في الطريق الموحل المؤدي إلى المركز التجاري. لا يثني موسم المطر البائعات عادة؛ إذ يقفن طوال النهار تحت مظلات كبيرة، ولا يتعرّضن للبلل أبداً. أمّا اليوم فكانت أكشاكهنّ الخشبية خاوية. وأغلقت كثير من المتاجر الواقعة على الطريق الرئيس أبوابها، لكنّ الحياة لم تكن غائبة تماماً عن المنطقة. فعندما خَفّ هطل الأمطار، أصبح الطريق الرئيس يعجّ بالبائعات وغيرهنّ؛ بحثاً عن الطعام. كما استُبدِلت الأعمال التجارية المعتادة ليحلّ محلّها تجارة من نوع آخر، يتمثّل في مقارعة الخطوب، أو ما يُسمّى صراع البقاء.

وقد جرت العادة أن يقوم الأشخاص الذين يودّون بيع مقتنياتهم بفرش قماش مشمّع، ثمّ عرضها عليه. لكنّهم أصبحوا الآن يتنقلون بين شخص وآخر قائلين: «**نديري ندي مالوندا. لديّ شيء أودّ أبيعه. ما رأيك في هذا المذياع؟ سأبيعك إيّاه بثمن بخس**».

لم يتمكّن أولئك الذين يحملون الأثاث من حشر أنفسهم للاحتماء تحت الشادر، فأغرق المطر الطاولات والأرائك الموجود على ظهورهم. لكنّ ذلك لم يثنهم عن الاستمرار.

قال رجل وقد ظهرت على مُحَيّاه ابتسامة حائرة: **لا تقلق بشأن الماء. هذا خشب صُلب، لن يفسد. سيدوم هذا الكرسي عندك سنوات عدّة. كم معك من المال؟ سأقبل أيّ شيء. أطفالي في حاجة إلى الطعام.**

كان قلّة من رجال الأعمال، أمثال السيد مانغوتشي، يشترون مثل هذه الأشياء، ويعيدون بيعها فيما بعد. لكنّ معظم الناس لم يكونوا يملكون شروى نقير. كانوا ببساطة يكتفون بهزّ أكتافهم ورؤوسهم. أخذ الناس الآن يتحلّقون حول بعض التجار القلائل الذين كانوا يبيعون

الذرة المستوردة. كانت الأسعار مرتفعة جدّاً لدرجة أنّ الجميع أصبحوا ينظرون إلى هؤلاء التجار بوصفهم مجرمين.

صرخ الناس: **أنتم سارقون.**

قال أحد التجار: **مَن الذي يحدّد هذه الأسعار؟**

قالوا: **إنّكم تقتلون أبناءنا!.**

وما هي إلّا دقائق معدودات حتى بدأ الناس يزيلون الألواح المعدنية عن بيوتهم ويبيعونها لقاء كوب من الدقيق، وينزعون سقوفها المصنوعة من القش لبيعها بأقل من ذلك.

سأل أحد الرجال: **ما نفع السقف حين أكون ميتاً؟**

وفي وقت لاحق، قُبِض على رجل يحاول بيع ابنتيه في السوق التجاري؛ إذ قام الشاري بإبلاغ الشرطة. لقد زاد اليأس في نفوس الناس.

وفي غضون ذلك، ساعدت أمطار شهر كانون الأول على نمو العشب ليصبح طويلاً جدّاً على أطراف الطريق. ونظراً إلى الهزال الذي أحاق بالناس، أو انشغالهم في البحث عن الطعام؛ فلم يقم أحد بتشذيبه. وقد شكّل العشب الطويل هذا مخبأً مثالياً للصوص، وسرعان ما أصبحت النسوة يتعرّضن للهجوم والسرقة عند مغادرتهنّ الطاحونة. ففي صباح أحد الأيام، كنت أمشي على طريق الطاحونة مُيمِّماً وجهي شطر البيت، وإذ بأمّ شابة تقف وحيدة باكية. كانت الجريمة قد حصلت للتو.

قالت باكية: **أطفالي ينتظرون، ما الذي سأفعله؟**

ثمّ ظهرت مجموعة من النسوة حاولن التخفيف عنها، بقولهنّ:

نعرف أنّ أطفالكِ في البيت يبكون. أرسلي زوجك في المرّة القادمة.

قالت الأمّ الشابة: **المرّة القادمة! لن يكون هنالك مرّة قادمة على الأرجح.**

كانت الأمور تزداد صعوبة على الجميع.

أصبح ملّاك الطاحونة لا يحتاجون إلى مكنسة في الداخل. فقد ترك الناس الأرض نظيفة كأنّها لُمِّعت بممسحة رطبة. كانت الطاحونة تضيق بأولئك الذين ينتظرون سقوط الفتات بداية كلّ شهر. وكانت الحشود المتأهّبة تُفسِح المجال أمام النسوة ليتمكّن من الدخول حاملات دلاء الحبوب. وما إن تهدر الآلة وتنفث غيمة بيضاء من الطحين في الدلاء حتى تتجمّع العجائز والنساء والأطفال، متحفزين بعيون تتقافز كالفراش. وبمجرّد أخذ دلو الدقيق يخرّ الناس على أيديهم وركبهم لجمع ما وقع على الأرض. بعدئذٍ، تقوم العجائز بضرب عكاكيزهنّ داخل المطحنة كأنّهنّ يقرعن جرساً، ثمّ يبدأن بجمع الدقيق الساقط على الأرض.

وما إن حلّ منتصف شهر كانون الأول حتى توقّف حدوث ذلك؛ نظراً إلى نفاد مخزون الجميع من الحبوب. وقد ظلّ البناء خالياً إلّا من بعض العمّال، والأطفال الذين فقدوا ذويهم أو تركوهم للجوع.

كان عيد الميلاد هو يومي المفضّل من السنة. لكنّ الوضع هذا العام كان مختلفاً كما تعلمون. كنّا في أوقات الرخاء نحتفل بليلة عيد الميلاد بمشاهدة مسرحية الميلاد المقامة في الكنيسة الكاثوليكية الواقعة آخر الطريق، ومتابعة يوسف ومريم والطفل المسيح وهم يحاولون التملّص من جنود هيرود بسيوفهم وبنادقهم الخشبية (لم تكن المسرحية دقيقة في تفاصيلها، لكنّها كانت مسلية).

بعد الكنيسة، كنّا نتناول النمل الطائر اللذيذ الذي يأتي كلّ عام في موسم المطر، حيث كانت الحشرات تحوم حول الضوء في السوق التجاري ليلاً، ثمّ تقع على الأرض لتسقط عنها أجنحتها البيضاء. ولكن، لما كنّا – معشر الأطفال– ممنوعين من الخروج ليلاً، فقد كانت شقيقاتي يُشعلن ناراً كبيرة من العشب اليابس خلف البيت، ثمّ يُمسكن النمل الطائر ويضعنه في حوض من الماء، ثمّ يشوين الغارق منه بمقلاة مسطّحة بعد غمره بالملح. ويشبه النمل المشوي في طعمه البصل المجفّف، إلّا أنّه يصبح ألذّ عند تقديمه مع السيما، أو تناوله مع الفول وأوراق اليقطين.

فـي صباح يوم عيـد الميلاد، يُستعاض عن البهالا وقت الإفطـار بالخبز البني المقطّع الطـري الغضّ. وإذا كنّا نملك مـالاً لشراء بعض الكماليات؛ مثل سمن بلـو باند، والسكر، والحليـب المجفّـف، فإنّنا نضع قطعـاً من الخبز معاً على صورة شطيـرة زبدية، ثمّ نغمسها بكوب من شاي التشومبي الساخن؛ إذ يُعَدّ الخبز الطازج مع سمنة بلو باند، ممزوجاً بالشاي الحلو والحليب، أحدَ أشهى الأطعمة التي يمكن أن تضعها في فمك.

تصبح شهية المالاويين كبيرة للحم في عيد الميلاد على وجه الخصوص. فإذا قضيت العـام كلّـه من دون تناول اللحم، فلعلّك تتدبّر بعضه فـي عيد الميلاد. لذا، كان والدي يذبح إحـدى الدجاجات ظهيـرة يوم عيد الميلاد. ودجاجة عيد الميلاد هـذه لا تُقدَّم مع السيما، بل مع الأرز. ففي حال طلبت إلى أيّ مالاوي أن يتحدث عن عيد الميلاد، فسيذكر لك الأرز.

يُذكَـر أنّ عيد الميلاد عام 2001م مرّ بأحوال استثنائية شكّلت ضربة قاصمة للجميع. فقبـل أسبوعين مـن موسم العطلات، أُصيبت معظم دجاجاتنـا بالطاعون الطيري، ما أدى إلـى شللهـا وجعلها غير قـادرة على الأكل، لتموت فـي نهاية المطاف. دجاجـة واحدة فقط تمكَّنـت من البقاء، وأُؤكِّد لكم أنّها شعـرت بوحدة قاتلة. وفي الوقت الذي ألغت فيه الكنيسة الكاثوليكية مسرحية الميلاد، لم تتكلَّف الكنيسة المشيخية عناء إرسال الدعوة، فلم يحضر أحد. ومع الجوع والوهن الذي أصاب الجميع، لم تتمكّن شقيقاتي من استجماع القوة لصيد النمل الطائر.

في صبيحة يوم الميلاد، لم يكن هنالك خبز طازج ولا سمنة بلو باند على الطاولة، ولا شاي مع الحليب والسكر، ولا دجاج على العشاء، ولا أرز. لم يكن هنالك إفطار على الإطلاق. استيقظـت من النـوم، وغسلت فمي، وأنصت إلـى أغنية (**الليلة الهادئة**) مـن أثير المذياع الموجـود في غرفة شقيقتـي. وبعد الأغنية، سمعت صوت منسِّـق الأغاني الشاب، وهو يقول بحماس وحيوية: (**حسناً، نتمنّى لكم عيد ميلاد مجيد**).

فقلت: **من السهل عليك قول ذلك من مكان عملك في بالنتاير، فأنتَ تنفّذ ما تمليه عليـك سياسـة الحكومة**، ثمّ تناولت معولـي وانطلقت إلى الحقول. لقد حاولت فعل أيّ شيء لتجنّب سماع مزيد عن عيد الميلاد.

عنـد الظهيرة تقريباً، تدبّرت والدتـي أمر غداء عيد الميلاد، لكنّه كان مجرّد كتلة من السيمـا، وقليل مـن أوراق اليقطين. ومن المرجح أنّها بذلت جهـداً كبيراً لتوفير ذلك القدر من الدقيق الذي مكّنها من إعداد الوجبة الإضافية. ومع ذلك، فقد تعذّر على الجميع الشعور بأجواء العيد. وبقيت أتضوّر جوعاً حتى بعد تناول حصتي من الطعام.

بعـد ذلـك، ذهبت لزيارة جيفـري في بيته، وقد تبيّـن لي أنّ أحواله قـد ساءت كثيراً. فحيـن دخلت غرفته وجدته جالساً على حافة سريره، وعلامات الكآبة والحزن والتعب بادية علـى مُحَيّـاه. فمنذ أن طحنت والدته آخر دلو ذرة لديها في شهر تشرين الثاني، أصبح يعمل بنظـام **الواغانيو**، ويجوب الأماكن بحثاً عن عمـل بالمياومة. وقد حالفه الحظ بإيجاد عمل تمثَّـل فـي اقتلاع الأعشـاب وحفر الأثلام في حقـل أحد التجار قرب الدامبـو. ولاحظت أنّ عرض فقر الدم ما زال يزعجه، وأنّ وزنه يتناقص.

قلت: **لم أرك منذ أيام يا رجل. وحقلك مليء بالأعشاب. إنّها تستحوذ على المكان.**

قـال: **أنـا مشغول بالغانيو. وكنت قد ذهبت أول الأمر للبحث عن طعام يكفينا شهراً، فأسبوعـاً. أمّـا الآن فـكلّ ما يهمني هو الغد. كيف لي أن أعتني بحقولي وأنا لا أجد طعاماً يقيتني للغد؟**

لقد أردت مساعدته. ولكن، ماذا عساني أفعل؟ ما باليد حيلة!

بعـد ذلـك، توجّهت إلـى بيت غيلبرت؛ فأنا لـم أره منذ أيام عدّة. وقـد خالجني شعور بالخـوف لدى اقترابي من البيت. فعادة ما كُنْتَ – في عيد الميلاد – تسمع صوت الموسيقا أو الغناء، وتشاهد العائلات التي ترتدي أبهى الثياب، وتغمرها الفرحة في أثناء توجّهها إلى المركـز التجـاري. لكنّ الناس الذين مرّوا اليوم كانوا يمشون ببـطء، مُطأطِئي الرؤوس، ولا يلقون حتى التحية.

وحين وصلت بيت غيلبرت، شاهدت نحو خمسين شخصاً منتشرين تحت إحدى أشجار اليوكاليبتوس في البيت. وكان الدخان الصادر من نار الطبخ يلف البيت بطبقة من الضباب الرمادي. ثمّ رأيت غيلبرت واقفاً عند المدخل، فبادرته قائلاً: **ميلاد مجيد، أليس كذلك؟**

هزّ رأسه قائلاً: **ليس هنا.**

قلت في نفسي من المؤكّد أنّ الزعيم ويمبي لديه بعض الدجاج والأرز اللذيذ. لكنّ غيلبرت عاجلني بقوله: **إنّ قوافل البشر المتواصلة عند باب البيت استنفدت معظم المخزون.**

ثمّ أضاف والحسرة بادية على مُحَيّاه: **لا شيء هنا سوى السيما والفول يا أخي.**

سألت: **كيف حال والدك؟**

أجاب قائلاً: **إنّه يرحّب بالناس حين يكون قادراً على ذلك، لكنّه في معظم الأوقات يكون مستلقياً، ويستمع إلى المذياع برفقة قطته.**

تَحسَّس أنفي رائحةً فظيعة حملها النسيم، فلويت شفتي، قائلاً: **ما هذا؟!**

قال: **أصبح الناس لا يتجشّمون عناء استخدام المرحاض، ويتغوّطون عند الأشجار. انتبه لخطواتك.**

قلت: **حسناً.**

لما كان غيلبرت مشغولاً بإطعام الجياع من الناس، وجيفري ليس على ما يرام ويشتغل بالغانيو، فقد ذهبت إلى المنتدى لأرى ما كان يصنع ابن عمي تشاريتي. طرقت باب المنتدى، فأدخلني تشاريتي. كانت هناك نار صغيرة في القدر. لم يكن زميله ميزيك موجوداً.

قال: **إنّه عيد الميلاد، لكنّني لم آكل شيئاً حتى الآن.**

قلت: **أنا جائع أيضاً.**

بدأنا نفكّر بطرائق للحصول على الطعام. كانت ثمار المانجو قد اختفت كلّها، ما يعني أنّنا لا نستطيع سرقة أيٍّ منها. ولم يكن تجار السوق على استعداد لمنح أيّ حفنة من الدقيق. ولحسن الطالع، لم نكن جائعين لدرجة الزحف إلى متاجرهم، والحفر بحثاً عن عرانيس سائبة في التراب، لم نكن قد بلغنا تلك المرحلة بعدُ.

قال تشاريتي: **نحن في حاجة إلى اللحم. لن أتمكّن من النوم الليلة من دون تناول لحم عيد الميلاد.**

كان هنالك رجل يُدعى جيمس، يملك كشكاً لبيع المانغينا قرب مكان بيع الكانينيا حيث يُقلى اللحم. **والمانغينا** هي لحم رأس البقرة أو الماعز وحوافرهما؛ أي ما يعادل النقانق، حيث يقطع الجزّار الرأس إلى ثلاثة أجزاء أو أربعة، ثمّ يرميها إلى جانب الأقدام والحوافر في قدر ماء مغلي. يمكنك أن تأتي وتأكل لحم الأقدام الغضّ، أو قطعة من الدماغ واللسان المسلوقين. كما كان لحم وجنة البقرة لذيذاً أيضاً.

بدأت أنا وتشاريتي نحلم بصوت مرتفع، قائليْنِ: **ربّما يصيب كرم عيد الميلاد جيمس، فيعطينا شيئاً لنأكله.**

قال تشاريتي: **لا تكن غبيّاً، فهو لن يُقدِم على ذلك أبداً.**

سكت قليلاً، ثمّ قال: **لكنّه يرمي الجلد.**

سألت وقد بدت على مُحَيّاي علامات التعجب: **أيمكنك أكل ذلك؟**

فأجاب: **ولِمَ لا؟ ما الفرق أصلاً؟ كلّه لحم، أليس كذلك؟**

قلت: **أعتقد أنّك محق.**

كان الجوع قد أثّر في تفكيرنا.

وفي أثناء المشي نحو كشك جيمس، رأينا بائعي الكانينيا يرعون أعمالهم المزدهرة كالعادة. وعلى الرغم من المجاعة التي تضرب الأنحاء، كان التجار الأثرياء يتحلّقون حول أكشاكهم، ويمضغون اللحم المشوي، وقبل أن يبلعوه، يقومون بحشر حفنة من البطاطا المقلية في أفواههم. وفي هذه الأثناء، تحلّقت مجموعة من القرويين حولهم لمشاهدتهم وهم يأكلون، ودراسة حركات أيديهم وهي تغمس القطع الدسمة في الملح قبل أن يلقوها في أفواههم. أخذت أُراقبهم أيضاً وهم يمضغون، فأحسست بلسعة مالحة تصيب لساني.

كان كشـك جيمس أبعد قليلاً على قارعـة الطريق، وكان هناك كالعادة، يقف عند قدر ضخـم يغلي فوق النار. اقتربت قليلاً، فتمكّنت من رؤيـة رأس الماعز الشهي وبعض الأقدام تسبح داخل القدر. وحينئذٍ، عزمت على المغادرة حالاً، إلّا أنّ تشاريتي سارع إلى القول:

جيمس، أنا وويليام نحاول صنع طبل عيد الميلاد لأطفال القرية. هلّا أعطيتنا بعض الجلد؟

رفع جيمس ناظريه عن القدر. **يا لها من فكرة جيدة**، قالها واستدار نحو كومة ما على الأرض، ملقاة على كيس جامبو أسود، يحيط بها الذباب.

قال: **لديّ جلد الماعز هذا. يمكنك أخذه، فقد كنت سأرميه على أيّ حال.**

وضـع تشاريتي الجلد في الكيس بسرعة، ثمّ ناولنـي إيّاه، وكان ما يزال دافئاً، ثمّ قال: **زيكومو كوا مبريري. سيقدِّر الأطفال ما فعلته من أجلهم.**

فردّ جيمس: **أكيد، أكيد.**

حملنا جلد الماعز الدافئ، وقفلنا عائدين إلى المبهالا.

سألت: **كيف سنُعِدّ هذا؟**

قال: **الأمر سهل، سنتعامل معه كما نفعل مع لحم الخنزير.**

عدنـا إلى المنتدى، ثمّ أشعلت النـار مجدَّداً بحزمة من لحاء شجرة اليوكاليبتوس، ثمّ أضفت بعض الأعواد بما أنّ لبّ الذرة قد نفد منذ زمن. وحين تأجّجت النار وأصبحت لاهبة، أمسكنـا الجلد من أطرافـه وبسطناه فوق اللهب. وسرعان ما احتـرق الشعر بفعل الحرارة، ليتجعّـد ويتحوّل إلى اللون الأسود. وكان ذلك عـادة يُصدِر رائحة كريهة، لكنّ الجوع جعلني أشتم رائحة اللحم المطبوخ فقط. وحالما تجعّد الشعر وتفحّم، استخدمنا سكاكيننا لإزالته عن الجلد. كرَّرنا ذلك أكثر من مرّة حتى تأكّدنا أنّه أصبح نظيفاً كله.

بعـد ذلك، قطّعنا الجلد إلـى مكعبات صغيرة، ثمّ وضعناها في قـدر من الماء. ولأداء المهمـة على أكمل وجه، جعلني تشاريتي أتسلّل إلى مطبخ والدتي وأسرق حفنة من الصودا،

قائـلاً: **تجعل النساء الفول يَجْهَز بصورة أسرع باستخـدام تلك الطريقة. أعتقد أنّ الأمر ينطبق على الجلد أيضاً.**

تركنـا الجلد يُسلَق ساعتين، مـع إضافة مزيد من الماء والملـح والصودا. وبعد ثلاث ساعـات، تجمَّعت طبقة سميكة مـن الرغوة البيضاء على السطح، فتنـاول تشاريتي سكينته وأزال الرغـوة، ثمّ أخرج قطعة جلد ساخنة. كانت رماديـة ولزجة. نفخ عليها بضع ثوانٍ، ثمّ وضعها في فمه. لقد صارع لمضغها، وعمل فكّاه بجدّ قبل أن يبلعها.

قلت ولعابي يسيل: **كيف هي؟**.

أجاب: **قاسية قليلاً. فالحطب بدأ ينفد، لنأكل بسرعة.**

أخرجنـا القطع من القـدر وأمسكناها بأصابعنـا. كان الجلد دبقاً كأنّـه مغطّى بغراء مغلـي. وضعـت أول قطعة في فمي، وأخذت نفساً لأشعر بحـرارة الطعام الساخن تندفع إلى معدتـي ورئتيّ. مضغت ومضغت، فسالـت عصارة الجلد من فمي لتلتصـق شفتاي بعضهما ببعض، وذلك مع كلّ مضغة.

عيد ميلاد مجيد، قلتها وأنا أُناضل لأنطق الكلمات.

وفـي هـذه الأثناء، سمعت صوت مخالب علـى الباب، تبعه صوت تـأوّه خفيف، ففتحت الباب لأجد كهامبا. لا بُدّ أنّه اشتم رائحة لحم عيد الميلاد في أثناء وجوده في غرفتي، فجاء يعرج. كان جسده النحيل محدباً ومتعباً، لكنّ ذيله كان يهتز بسرعة كما الأيام الخوالي. لقد كنت سعيداً لرؤيته.

صرخ تشاريتي: **أعطِ الكلب بعضها، فهو طعام لا يصلح إلّا للكلاب على أيّ حال.**

قلـت: **بالتأكيـد**، ثمّ التفـت إلى كهامبا، قائـلاً: **لنحضر لـك شيئاً تأكله يـا فتى. من المؤكّد أنّك تتضوّر جوعاً.** ثمّ رميت قطعة لحم لزجة،

وإذ بكهامبا يقفز على قائمتيه الخلفيتين ليمسكها في الهواء، تماماً كما كان يفعل فيما مضى، فصرخت: **أحسنت يا فتى.**

تمكَّن كهامبا من ابتلاع القطعة كلّها في ثانية واحدة، ثمّ لعق شفتيه مُنتظِراً غيرنا. بعد ذلك، عدت إلى الداخل، وأحضرت له قطعتين كبيرتين من الجلد. وبعد التهام كلّ شيء، بدا أنّ الروح قد دبَّت في جسده مُجدَّداً، وأخذت عيناه ترمشان بحماسة وهو يهزّ ذيله. لقد سمح له تشاريتي بدخول المنتدى هذه المرّة فقط بمناسبة عيد الميلاد.

لم أعرف عدد القطع التي تناولتها. ولكن، بعد نصف ساعة من المضغ، استسلمت أنا وتشاريتي. فقد تعبت فكوكنا، ولم نتمكّن من المواصلة. بقيت قطع كبيرة عدّة من الجلد في القدر، وفكّرت في شقيقاتي ووالديّ الذين كانوا في البيت جياعاً على الأرجح، ويحلمون بتناول اللحم في عيد الميلاد. لكنّني لم أجرؤ على الطلب من تشاريتي أخذ بعض اللحم لهم؛ إذ كان عُرفاً أنّ ما يحدث في المبهالا يبقى في المبهالا. لذا، فقد تناولنا القطع المتبقية بأنفسنا في الأيام التي تلت.

ومع غروب شمس الأصيل في ذلك اليوم، جلسنا حول النار الخامدة، راضين بما قُسِم لنا، ويراود معدتينا شعور دافئ من جرّاء تناول اللحم؛ فذلك هو جوهر عيد الميلاد في نهاية المطاف.